

صيغة استفعل في القرآن، استعمالاً ودلالة: دراسة بنائية دلالية

إبراهيم أبو غالية(*)

الملخص: يعرض هذا البحث لصيغة "استفعل" في القرآن الكريم، وما يعترضها من دلالات ومعاني، وقد تناول البحث عشر صيغ فقط بما يتناسب وحجم البحث، وقد تبين أن كثيراً من المعاني التي قال بها اللغويون والنحاة والمفسرون لا تتناسب والسياقات القرآنية، والمغزى الذي ترد فيه. وتضفي صيغة "استفعل" على النص مناحي نفسية وجمالية، ودقائق معنوية ولطائف بيانية تجعل النص يشع بالدلالات والمعاني التي تنطمس إذا وقفنا على المعاني التقليدية المعروفة. وأبرز معاني "استفعل" وروداً من خلال ما تُرس من صيغ هو معنى المبالغة، والتوكيد.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، صيغة استفعل، دراسة بنائية دلالية.

The use and Indication of the paradigm of, Istaf'ala' in Quran

Ibrahim Abu Galia

Abstract: This research investigates the paradigm "Istaf'ala" in the Holy Quran and its semantic and syntactic connotations. The research is confined to ten paradigms only to suit the size of the research. The researcher concluded that many of the meanings referred to by linguists and Quran interpreters do not suit Quranic contexts. The researcher also found out that the paradigm "istaf'ala" adds to aesthetic as well as psychological values which make the text abound with deep semantic indications. The researcher, moreover, found out that the most prominent meaning of "istaf'ala" included in the studied material is the meaning of intensification and assertion.

Keywords: Quran, Istaf'ala.

(*) أستاذ مساعد، دائرة اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القدس/ أبو ديس.

مقدمة البحث:

تناول هذا البحث صيغة استفعال في القرآن الكريم من خلال عشر صيغ، وهي: استجاب، استخف، استنزل، استضعف، استعف، استنفز، استكبر، استكثر، استنفر، استنقذ.

أهمية البحث:

- 1- تحاول هذه الدراسة أن تزيل اللثام عن معاني صيغة "استفعال" في القرآن الكريم دون الوقوف عند المعاني التي ذكرها النحاة في كتبهم، وهي لا تكاد تقدّم صورة صحيحة لدلالات هذه الصيغة في القرآن الكريم.
- 2- وقد برزت في هذه الدراسة معانٍ قلّمَا ذكرها النحاة أو لم يذكرها أصلاً.
- 3- وبذلك يكون تبين هذه المعاني محاولة لفهم النص القرآني اعتماداً على فهم دلالة هذه الصيغة، والسياق الذي وردت فيه.
- 4- ولا معنى لما يقوله بعض المفسرين في دلالة "استفعال" أنّها بمعنى أفعال أو فَعَل، أو افتعل؛ إذ كلّ زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى كما يقول الصرفيون.

الدراسات السابقة:

وقد عثرت على دراسة مشابهة لهذه الدراسة بعنوان: "دلالة استفعال على المبالغة في القرآن الكريم"، للباحث زهير محمد علي الأرنؤوطي، جامعة بغداد، كلية التربية، ابن رشد، مجلة الأستاذ، عدد (200)، لسنة 2013م. وتناول الباحث في دراسته هذه عشر صيغ في القرآن رأى أنّها جاءت للمبالغة والتوكيد وقد حرصت على عدم تناول صيغة وردت في ذلك البحث، وإن كنت التقيت معه في بعض نتائج البحث، كما كانت طريقي مختلفة في تناول الصيغ ومعالجتها.

منهج البحث:

اتبعت في هذا البحث المنهج الاستقرائي التحليلي، فقامت باختيار عشر صيغ، ثم تتبعت مواردها في القرآن الكريم، وبعد ذلك حاولت تتبع معانيها في أمّات المعاجم، وكتب النحو والتفسير، ثم اجتهدت في تبين معانيها معتمداً بشكل رئيس على دلالتها اللغوية والسياق الذي وردت فيه. ولقد فسّم هذا البحث إلى مبحثين، تناولت في الأول معاني صيغة "استفعال" كما وردت عند النحاة، وفي المبحث الثاني تناولت عشرًا من هذه الصيغ في القرآن الكريم مبيّناً المعاني والدلالات التي تحملها.

المبحث الأول:**الأحرف الزوائد ومعاني صيغة استفعال:**

هناك أحرف تزداد على الأحرف الأصول في الكلمة، تسمّى بأحرف الزيادة. وهي مجموعة في قولهم: سألتموتيتها، أو: اليوم تنسأه، أو: هويت السّمان. وليس معنى كونها حروف الزيادة أنّها لا تقع إلا زائدة، إذ ما منها حرف إلا ويكون أصلاً في كثير من المواضع؛ بل المعنى أنه إذا زيد حرف على أصول الكلمة لا يكون ذلك المزيد إلا من هذه الحروف إلا أن يكون المزيد مضعفاً¹. وأغلب الزيادة التي تطرأ على الأفعال تأتي لمعان على البدل، كالهزمة في أفعال تفيد النقل، والتعريض، وصيرورة الشيء كذا. وليست هذه الزيادة قياساً مطّرداً، بل يُحتاج في كل باب إلى سماع استعمال اللفظ المعين، وكذا استعماله في اللفظ المعين، فكما أنّ لفظ "أذهب" و "أدخل" يُحتاج فيه إلى سماع، فكذا معناه الذي هو النقل مثلاً، وليس لك أن تستعمل أذهب بمعنى أزال أو عرض أو نحو ذلك².

وتأتي الزيادة عند النحاة لأسباب:

- 1- الإلحاق، نحو: كوثر. والإلحاق هو: زيادة حرف أو أكثر على صيغة أخرى تصيح على وزن كلمة أخرى، وهو يأتي غالباً لغير معنى.
- 2- لمعنى نحو: حروف المضارعة.
- 3- أو لإمكان: أي لإمكان النطق بالكلمة نحو همزة الوصل.
- 4- أو للمدّ نحو: كتاب
- 5- أو لعوض نحو: تاء زنادقة، وهم يقولون إنّ التاء عوض عن ياء زنديق في المفرد.
- 6- أو لتكثير حروف الكلمة نحو: قبعثرى³.

معاني صيغة استفعل:

- 1- الطلب: ويكون صريحاً نحو: استكتب، استوهب، استطعم، ومقدراً نحو: استخرجته؛ لأنه بمزاولة إخراج، والاجتهاد في تحريره كأنه طلب منه أن يخرج⁴.
- 2- التحوّل: وهو الانتقال من حال إلى أخرى، نحو: استحجر الطين، استنوق الجمل، استتيست الشاه⁵.
- 3- الاتخاذ، نحو: استخلف فلاناً فلاناً، واستعمره في أرضه، واستشعر الرجل إذا لبس شعاراً.
- 4- الإصابة على صفة ما، نحو استجدته، أي أصبته جيداً، واستكرمه، أي أصبته كريماً، واستعظمه، أي أصبته عظيماً، واستسمنته، أي أصبته سميناً⁶.
- 5- اعتقاد الشيء أنه على صفة أصله، نحو: استكرمه، أي اعتقدت فيه الكرم، واستعظمه، أي اعتقدته عظيماً⁷.

وقد تأتي لمعان أخرى ذكرها النحاة:

- 1- مطاوعة أفعال: كأحكمته فاستحكم، أراحه فاستراح⁸.
- 2- موافقة معاني صيغ آخر، كموافقة أفعال، نحو: استحصد، وأحصد، واستيقن وأيقن⁹.
- 3- وبمعنى تفعل: كتعظّم واستعظم، وتكبر واستكبر¹⁰.
- 4- وبمعنى فعل نحو: قرّ واستقرّ، وعلا واستعلى، واستخلف وأخلف¹¹.
- 5- وبمعنى افتعل، نحو: استعصم واعتصم، واستراح وأراح¹².
- 6- والذي للإغناء عن المجرد، نحو: استحيا، واستأثر، واستبدّه¹³.

المبحث الثاني: معاني صيغ "استفعل" في القرآن الكريم**صيغة الفعل: "استجاب"**

أكثر علماء اللغة والمفسرين على أنّ، "استجاب"، بمعنى أجاب، جاء في المخصص: "وقد أجبته، واستجبته، وله، واستجوبته، والاسم الجواب والجابة"¹⁴، وجاء في اللسان: "والإجابة، والاستجابة بمعنى¹⁵، وجاء في تفسير الواحدي، "وأجاب واستجاب بمعنى واحد"¹⁶، وجاء في تفسير البحر المحيط:

"ويكون استَفْعَلُ فيه بمعنى "أفعل"، وهو كثير في القرآن، فاستجاب لهم ربهم أنّي لا أضيع، فاستجبنا له ووهبنا له يحيي"¹⁷

وقد لاحظ بعض العلماء فرقا بين الفعلين، فجاء في تفسير الراغب الأصفهاني: "فليستجيبوا لي"، ولم يقل: ليجيبوا للطيفة، وهي أنّ حقيقة الاستجابة طلب الإجابة، وإن كان قد يستعمل في معنى

الإجابة، فَبَيَّنَ أنه متى تحرّروا إجابته بقدر وسعهم فإنه يرضى عنهم¹⁸. وكانّ الراغب يشير إلى زيادة في المعنى يتضمنه الفعل استجاب دون أجاب، وهو في قوله: تحرّروا إجابته بقدر وسعهم، وكأنّه يريد أن يقول إنّ الاستجابة ليست مُجرّد قول، أو إجابة بالقبول، بل هي أكثر من ذلك، إذ فيها اجتهاد في تحري الأعمال والطاعات التي فيها مظنة الإجابة.

وجاء في المُحرّر: "وقال مجاهد وغيره: فليُجيبوا إليّ فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي بالطاعة والعمل، ويُقال: أجاب واستجاب بمعنى"¹⁹.

وهو يؤيد قول الراغب بأنّ الاستجابة لا بدّ فيها من الطاعة والعمل، ثم أردف بعد ذلك بقوله: ويقال أجاب واستجاب بمعنى، فكأنه يضعف القول بالترادف بين الفعلين.

وجاء في نظم الدرر: "جاء بصيغة الاستفعال المشعر باستخراج ما شأنه الإباء لما في الأنفس من كره فيما تحمل عليه"²⁰.

وكانه يشير هنا إلى معنى دقيق لصيغة "استفعل"، وهو أنّ في هذا الفعل معاناة ومعاندة للنفس في حملها على ما تكره من الواجبات والطاعات.

وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "والسين والتاء في استجابوا للمبالغة في الإجابة"²¹.

ويرى الباحث حنان عمايرة أنّ هناك فرقا بين "أجاب" و "استجاب"، وهو أن أجاب تعني ردّ الجواب، وأما "استجاب" فهي إنفاذ للردّ²². وهذه التفرقة ليست دقيقة، فهي قد تصح أحيانا كقوله تعالى: "وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ" (القصص، 65) ولا تصح في كثير من المواطن كقوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ"، والإجابة هنا ردّ وإنفاذ لدعوة الداعي، وكذلك قوله تعالى: "أَحْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِيبُ دَعْوَتَكَ" (إبراهيم، 44)، وقوله: "أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا" (النمل، 62).

يتضح مما سبق أن الفعل استجاب فيه زيادة على مجرد الإجابة؛ إذ فيه تحرّراً للإجابة، وامتثال للطاعات والواجبات، والزام للنفس، ومعاندة لها، وحملها على طاعة المأمور فيما تحبّ وتكره. وإذا كانت الاستجابة من الربّ يكون فيها تقبّل الدعوة، وكمال العناية بالداعي، وإجابة دعوته على أحسن صورها، وأتمّ وجوها.

ويتحصل من كلّ ذلك أن الفرق بين الإجابة والاستجابة أنّ الاستجابة تحمل في دلالتها معنى التوكيد والمبالغة.

ورد الفعل استجاب في القرآن الكريم في ثمانية وعشرين موضعاً، وسأتناول أربعة مواضع منها مبيناً المعنى الذي تضمنه هذا الفعل.

قال تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانَ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة: 186):

أ. جاءت هذه الآية في سياق آيات الصيام، وما فيها من تبيين لأهمية هذا الشهر الذي يصام نهاره، ويقام ليله، إذ هو موسم للعبادة يتسابق فيه الناس في مختلف صنوف العبادات؛ لذا كان هذا الشهر مظنة إجابة دعاء المؤمنين، فجاء بالفعل "استجاب" عقب هذه العبادات والطاعات توكيداً لهذه الإجابة؛ لأنها تقع في موطن يتوقع قبولها فيه.

ب. جعل الإيمان في الآية معطوفاً على الاستجابة ممّا يدل على أنّ هذه الاستجابة فيها من الطاعات والأعمال الصالحات ما يجعلها سبباً في زيادة الإيمان وقوته.

1- قال تعالى: "فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بِعَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضِ الَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ". (آل عمران، آية 195):

وردت هذه الآية في سياق الحديث عن صنف مُميّز من المؤمنين، اختص بصفات جليلة وهي:

قيام الليل، وذكر الله تنزيهه وتعظيمه، ثم الالتجاء إليه بدعاء خاشع في أن يدخلها الجنة، وأن يجنبها النار، وعندما استجاب سبحانه لهذه الفئة ذكرهم بأعمالهم التي أهلتهم لذلك، وهي أنهم هاجروا، وأخرجوا من ديارهم، وتحملوا الأذى في سبيل الله، فكان الفعل "استجاب" في هذا الموطن دالاً على كمال العناية، وحسن الإجابة، وتوكيد حصولها لمن كانت هذه حالهم.

2- قال تعالى "الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران 172):

تصور هذه الآية حال المؤمنين بعدما أصابهم في أحد ما أصابهم، ثم تلقوا الأمر بالخروج لقتال المشركين، وهم ما زالوا في جراحاتهم وآلامهم، فلبوا نداء الله ورسوله دون أن يتخلف منهم أحد، وهذا يحتاج إلى معاندة للنفس، وإكراه لها على ركوب الألم ولعق الجراح، فكان الفعل "استجاب" في مكانة معبراً عن هذا المعنى، وهو تلبية الأمر على هذه الحال.

3- قال تعالى: "قَالَ رَبِّ السَّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (33) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (يوسف، آية 33-34) جاء الفعل "استجاب" الدال على التوكيد والمبالغة للأسباب الآتية:

- يتعرض يوسف -عليه السلام- لحرب نفسية، ومادية، فهناك محاولة جماعية من جماعة النسوة لإيقاعه في فاحشة الزنى.
 - إذا لم يلبّ يوسف أمر سيده فالفلسج والهوان ينتظرانه متمثلاً في سجنه. "وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجُنَنَّ وَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ."
 - كان يوسف عليه السلام صادقاً في التعبير عن مشاعره، صريحاً مع نفسه، وما يعتريها من ضعف بشري؛ فأكد الصراع الذي يحدث في نفسه بين الإيمان والصبر عن الحرام، وبين داعي الحرام من هوى النفس، ووسوسة الشيطان، وإغراء النسوة.
- لذا كانت الإجابة بقوله تعالى: "فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ" توكيداً للإجابة وتعظيماً وتحقيقاً لها، وتخليصاً ليوسف -عليه السلام- من معصية متوقعة.

الفعل استخف:

من المعاني التي تخرج إليها صيغة استفعل: الوجدان على صفة ما، جاء في الكتاب: "تقول: استجده؛ أي: أصبته جيداً، واستكرمه؛ أي أصبته كريماً"²³، وجاء في أدب الكاتب: "وتأتي استفعلت بمعنى: وجدته كذلك"²⁴، وجاء في شرح التسهيل: "والذي لإفاء الشيء بمعنى ما صيغ منه: كاستعظمته إذا وجدته عظيماً، واستصغرتة إذا وجدته صغيراً، واستكثرتة إذا وجدته كثيراً"²⁵. والذي يراه الباحث أن الفعل "استخف" لا يخرج عن هذا المعنى أينما ورد في القرآن الكريم، وقد ورد في ثلاثة مواضع، وهي:

الموضع الأول:

قال تعالى: "فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ" (الزخرف 54): أي وجدهم خفافاً، ووجد فيهم خفة، وهي خفة في العقول وفي النفوس سببها قصور في التفكير، وخور واستكانة تمنع من مواجهة الباطل، كل ذلك دفع فرعون إلى أن يتجرأ على توجيه أوامره إليهم في معاداة الحق وإجابة الباطل؛ فلم يكن منهم إلا الطاعة والخنوع. جاء في تاج العروس. "واستخفه ضد استنقله، أي رآه خفيفاً"²⁶، وجاء في تفسير القرطبي: "وقيل: وجدهم خفاف العقول، وهذا لا يدل على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بد من إضمار تعبير تقديره: وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فاطاعوه"²⁷.

وقيل إن "استخف" هنا تفيد معنى الطلب، وهو طلب مادي؛ فيكون "استخف" قومه بمعنى طلب منهم أن يخفوا معه لما أمرهم به، قال الفخر الرازي: "فاستخف قومه فاطاعوه؛ أي: طلب منهم

الخفة في الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه²⁸، وهذا المعنى بعيد؛ لأنّ طاعة قومه له لم تكن فقط في طاعته باللاحق بموسى؛ بل إنها كانت في طاعته في كلّ ما يأمر وينهى، ومنها تأليهه، وإدعاء كذب موسى عليه السلام، وأما الخفة معه في اللاحق بموسى فكانت نتيجة لذلك.

وقيل إنها بمعنى الطلب المعنوي، جاء في اللسان: "فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ"، أي: حملهم على الخفة والجهل²⁹، ولا أرى هذا المعنى صحيحاً؛ لأنه يتضمن أنهم لم يكونوا جهلة ولا خفاف العقول، بل كان ذلك بطلب منه عن طريق تصديقه، وطاعة أوامره. والإنسان السويّ مستقيم الفطرة لا يمكن أن يحمله طاغية على أن يكون جاهلاً وخفيف العقل ما لم يكن هو كذلك، أو مُهَيَّئاً ومستعداً لذلك نتيجة جهلة وخفة عقله.

الموضع الثاني:

"وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ"، (النحل 80): أي: تجدونها خفيفة المحمل عند سفركم وعند إقامتكم، جاء في الكشاف: "تستخفونها، ترونها خفيفة المحمل في السفر والنقض والنقل يوم ظعنكم ويوم إقامتكم"³⁰، وجاء في تفسير البيضاوي: "تستخفونها: تجدونها خفيفة يخفّ عليكم حملها ونقلها"³¹، وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "والسين والتاء للوجدان، أي خفيفة المحمل حين ترحلون، إذ يسهل نقضها وطبها وحملها على الرواحل"³².

الموضع الثالث:

قال تعالى: "وَلَا يَسْتَخَفُّونَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ" (الروم، 60): والمعنى يُحمل على الوجدان والإصابة على حالة معينة، أي: لا يجدوك خفيفاً تستثيرك كلماتهم وتخرصاتهم، وتتألم من تقولاتهم وافتراءاتهم؛ بل إنّ ذلك مما تبتهج به نفوسهم، وتُسرّ له قلوبهم، فكن كالجبل الراسخ لا تحركه الأنواء، ولا يزلزله الأقسام، جاء في تاج العروس: "واستخفه ضد استنقله، أي رآه خفيفاً"³³.

ولا أرى مانعاً من حمل المعنى على الطلب، وهو الطلب المعنوي، ويكون المعنى لا تكن أفاعيل الكفار وادعاءاتهم، وما يتجرؤون به على الله سبحانه من التقول عليه بغير علم، لا يكن ذلك حاملاً لك على أن تكون خفيفاً لا تضبط نفسك منتقلاً من الحلم إلى الغضب، ومن الصبر والعفو إلى المواجهة بالقول الشديد والردّ العنيف؛ فإنّ ذلك لا يليق بدعوتك، ولا يناسب مكانتك، وهو ما يحرص عليه أعداؤك.

الفعل استزل:

ورد الفعل "استزل" في القرآن الكريم في موضع واحد، وهو قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْبُخَارَىٰ إِنَّهُمْ لَمُنْكَرُونَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (آل عمران 155):

وأكثر المفسرين على أنّ السين والتاء تفيد الطلب، جاء في الكشاف: "استزلهم طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ببعض ما كسبوا"³⁴، وجاء في مفاتيح الغيب: "إنما استزلهم، أي حملهم على الزلة، وأزلّ واستزلّ بمعنى واحد، قال تعالى: فأزلهما الشيطان عنها، وقال ابن قتيبة استزلهم: طلب زلتهم كما يقال: استعجلته طلبت عجلته"³⁵، وجاء في البحر المحيط: "واستزلّ هنا استنقل للطلب، أي طلب منهم الزلل ودعاهم إليه.... ولا يلزم من طلب الشيء واستدعائه حصوله، فالأولى أن يكون استنقل بمعنى أفعل"³⁶.

والذي يراه الباحث هنا أنّ "استزلّ" ليست بمعنى "أزلّ"؛ لأنها تخالفها في مبناها، وهي كذلك ليست بمعنى الطلب؛ إذ إنّ معنى الآية لا يستقيم إذا كانت بمعنى الطلب؛ ويكون المعنى حينئذ: إنّ

الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما طلب منهم الشيطان أن يزلوا ببعض ما كسبوا، والشيطان يطلب من الإنسان أن يزل، وأن يقع في المعصية في كل حين ولا يقيده في ذلك شيء. والأقرب إلى المعنى والسياق أن تكون صيغة استنزل على المبالغة، وجرس الكلمة يشير إلى هذا إذ فيه الإيحاء إلى أن الشيطان قد حاول جاهداً إزلالهم؛ فالصيغة تلمح إلى أن الشيطان قد وظف كل أساليب الوسوسة والإضلال بالترغيب تارة، وبالترهيب تارة أخرى، كالتذكير بشبح الموت، وضياح الذرية، وتقويت زهرة الدنيا وما فيها من أموال وشهوات ونعم، وبقي يوسوس وينفخ في أمانيه ووعوده حتى استطاع أن يجعلهم يفرون من أرض المعركة. ومما يؤكد هذا المعنى كذلك:

1- إن الذين استرلهم الشيطان هم مؤمنون، وليسوا منافقين، وبعضهم من كبار الصحابة كعثمان رضي الله عنه؛ لذا عقب في خاتمة الآية بقوله "وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ" (آل عمران، 100)، وهؤلاء لا يمكن أن يضعفوا أمام وسوسة الشيطان إلا بعد جهد كبير، وكيد دؤوب بذله الشيطان في سبيل إضلالهم.

2- سياق الآية فيه تأكيد بأقوى الأساليب وهو الحصر؛ ليؤكد أنه مهما بلغت وسوسة الشيطان وكيدته فلن يستطيع أن يوهن نفوس المؤمنين إلا إذا كانت هذه النفوس قد اقتربت بعض الذنوب التي أصبحت مدخلاً وحبالاً يمكن الشيطان من هذه النفوس. وهذه الذنوب بعضها قلبي ونفسي؛ قال تعالى: "مَنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا" (آل عمران 154)، وبعضها اكتسبته الجوارح؛ قال تعالى "حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم" (آل عمران، 152).

صيغة الفعل استضعف:

وردت صيغة "استضعف" بمعنى اعتقد الشيء على صفة معينة، وبمعنى أصابه على صفة معينة، وقد تحمل الصيغة كلا المعنيين كما في الفعل استضعف.

قال تعالى: "إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي" (الأعراف، 150): جاء في البحر المحيط: "ومعنى استضعفوني وجدوني، فهي بمعنى إلقاء الشيء بمعنى ما صيغ منه؛ أي اعتقدوني ضعيفاً"³⁷.

والذي يظهر للباحث أن المعنى لا يتم بأحد المدلولين، فلا يمكن أن يكون المعنى: إن القوم استضعفوني، أي: اعتقدوني ضعيفاً، لأنه لا يترتب على اعتقادهم شيء، ولا يمكن أن يكون المعنى: وجدوني ضعيفاً؛ لأنه لا يترتب على وجدانه ضعيفاً شيء يستلزم تسويغ موقفه أمام أخيه موسى. والذي يظهر من خلال استعمال هذا الفعل في مواضعه المختلفة أن له ثلاثة معان يعقب بعضها بعضاً؛ يكون الاعتقاد أولها، ويكون من طريق الحسبان والظن؛ جاء في تفسير التحرير والتنوير:

"والسين والتاء في استضعفوني للحسبان: أي حسبوني ضعيفاً؛ لأنهم تمالؤوا على عبادة العجل، ولم يخالفهم إلا هارون في شردمة قليلة، وقوله: وكادوا يقتلونني، يدل على أنه عارضهم معارضة شديدة، تم سلم خشية القتل"³⁸، ثم يكون الوجدان ثانياً من طريق الرؤية والممارسة والمخالفة؛ فيصل الفاعل إلى حقيقة ضعف الشيء، ثم يأتي الأمر الثالث، وهو ممارسة لوازم الاستضعاف كالسلط والقهر والتعذيب، والدليل هلى ذلك أنه قرن الاستضعاف بمحاولة القتل: استضعفوني وكادوا يقتلونني.

قال تعالى: "يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم" (القصص، 45)؛ ففرعون لم يقف عند حد اعتقاد ضعفهم، أو وجدانهم ضعفاء، بل إن ذلك دفعه إلى الطمع فيهم وظلمهم والنيل منهم، فيكون المعنى: اعتقد وظن فيهم الضعف، ثم لمس ضعفهم من طريق التعامل معهم وتجريبهم؛ ثم ممارسة لوازم الاستضعاف وهو القهر والتسلط والتعذيب. ومما يؤكد ذلك أنه فسّر الاستضعاف بصورته الواقعية وهي التعذيب والتذبيح: "يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم".

صيغة "استعف":

جاء في اللسان: " الاستعفاف: طلب العفاف، وهو الكفّ عن الحرام والسؤال من الناس، أي: من طلب العفة وتكلفتها أعطاه الله إياها، وقيل: الاستعفاف الصبر والنزاهة عن الشيء" ³⁹. فصاحب اللسان يصرح بأنّ الفعل استعفّ يأتي بمعنى الطلب، ويلمح إلى معنى آخر، وهو المبالغة، وذلك في قوله " أي مَنْ طلب العفة وتكلفتها، وقد أيد الزمخشري هذا المعنى بقوله: " واستعفّ أبلغ من عفّ كأنه طالب زيادة العفة" ⁴⁰، وقد ورد الفعل استعفّ في القرآن في موضعين:

الموضع الأول:

قوله تعالى: " ومن كان غنياً فليستعفف" (النساء، 6):

فزيادة السين والتاء ليست بمعنى الطلب؛ لأن ذلك لا يستقيم والسياق، فليس معنى الآية: ومن كان غنياً فليطلب العفاف، فالعفاف لا يطلب طلباً، بل هو نابع من النفس، ومن قوة إيمانها، ومن استعصامها بدين الله وحفظها له، فالمعنى الأقرب للسياق هو المبالغة في العفة وتكلفتها وحمل النفس عليها، إذ العفة هي الامتناع عما لا يحل ولا يليق من قول أو فعل؛ فيكون المعنى: هو المبالغة في العفة وتكلفتها؛ لأنه يريد أن يمنع نفسه ويحرمها من شيء تميل إليه بطبعها، وتهوي إليه من ذاتها، فولّي اليتيم يكون راعياً لمن هو في حجره، وينفق عليه من ماله، وهذا يدفعه إلى التصرف في مال اليتيم مقابل هذه الرعاية والنفقة، ولا يمنعه ذلك إلا أن يكلف نفسه ويلزمها تجنّب مال اليتيم ويبالغ في ذلك.

الموضع الثاني:

" وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله" (النور، 33):

جاء في الكشاف تعليقاً على هذه الصيغة: " وليستعفف: وليجتهد في العفة وطلب النفس، كأنّ المستعفّ

طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه" ⁴¹، وجاء في تفسير البيضاوي: " وليستعفف: وليجتهد في العفة وقمع الشهوة" ⁴²، وجاء في البحر المحيط: " وليستعفف: أن يجتهد في العفة وصون النفس، وهو استعقل بمعنى طلب العفة من نفسه وحملها عليها" ⁴³، وجاء في تفسير التحرير " والسين والتاء للمبالغة في الفعل" ⁴⁴.

ويظهر مما سبق أنّ استعفل تفيد المبالغة في صفة العفة، والاجتهاد في تحقيقها وحمل النفس عليها وتكلفتها؛ لأنّ طالب النكاح يكون غالباً مندفعاً إليه، ونفسه متشوقة له، ولا يمكن وقف هذا الاندفاع، ولجم هذه الشهوة الجامحة، وتصبير النفس المتشوقة، إلا بمزيد من العفة والاجتهاد في كبح جوامح النفس المتطلعة إلى تحقيق رغباتها. ففوة النفس الراغبة الطالبة تقابلها قوة معاكسة، وهي حمل النفس على العفة والصبر عليها.

الموضع الثالث:

" وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ" (النور، 60).

جاء في التحرير: " والاستعفاف التعفف، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استجاب" ⁴⁵، القواعد من النساء هنّ اللواتي رغب عنهنّ طالبوا النكاح لكبرهنّ وتغير حالهنّ، فلا جناح عليهن في تخفيف ثيابهنّ، وهو ما كان فوق الخمار والدرع؛ لأنه لم يعد يُنظر إليهنّ نظرة زواج أو شهوة، ولكنّ الاستعفاف خيرٌ لهنّ. والاستعفاف هنا عدم التخفف من بعض الثياب، وهؤلاء النسوة تنقلهنّ الثياب الكثيرة ويرينّ ألا حاجة إليها لعزوف الرجال عنهنّ، فكان تكليفهنّ بلباس الشابات فيه شيء من الثقل عليهنّ، فكنّ بحاجة إلى أن يتكفنّ هذا الفعل وأنّ يلزمن أنفسهن به، ويبالغن في هذا الإلزام؛ لأنه تكليف للنفس بما لا ترغب فيه أو تميل إليه.

استنفر:

ورد في اللسان: " وفزه فزاً وأفزه: أفزعه وأزعجه وطير فؤاده... واستنفره من الشيء أخرجه، واستنفره: قتله حتى ألقاه في مهلكة، واستنفره الخوف أي استخفه... وقال أبو اسحاق في قوله: لئستنفرنك: أي لئقتلونك، رواه أهل التفسير؛ وقال أهل اللغة: كادوا يستخفونك إفزاعاً يحملك على خفة الهرب، قال أبو عبيد: أفزرت القوم، وأفزعتهم سواء"⁴⁶.

يظهر مما ورد أن مادة "فز" تدور حول الإزعاج والترهيب والتخويف الذي قد يؤدي إلى الاستخفاف والهرب. ويرى الباحث أن صيغة "استنفر" تفيد المبالغة في الفز، وقد ورد ذلك تلميحاً في كلام صاحب اللسان؛ فقال: وفزه فزاً وأفزه أفزعه وأزعجه وطير فؤاده، ثم ذكر بعد ذلك صيغة "استنفر" كالمفروق بينهما في المعنى، فقال: واستنفره من الشيء أخرجه، واستنفره قتله حتى ألقاه في مهلكة، واستنفره الخوف أي: استخفه.

إذن فالمادة تدور في أصلها الثلاثي حول الإزعاج والتخويف، وعندما بنيت على صيغة استنفر اكتسبت معاني هي مبالغة في أصل المادة، وهي: الإخراج، والإلقاء في التهلكة والاستخفاف. وكل هذا حدث بعد المبالغة في معنى الفز، وهو الإزعاج والتخويف.

وقد وردت صيغة استنفر في القرآن في ثلاثة مواضع، وهي:

الموضع الأول:

قال تعالى: " وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ" (الاسراء آية 64): ويظهر معنى المبالغة في صيغة استنفر من خلال النقاط الآتية:

1- وردت الآية في سياق توعد إبليس لإضلال ذرية آدم: "لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً، (الاسراء، 62)، فكان الرّد على إبليس في أن يستجمع كل ما عنده من وسائل وأساليب لإضلال ذرية آدم، ولن يستطيع إضلال غير من اتبعه.

2- جاء الفعل "استفزر" وما بعده من الأفعال، وهي: وأجلب عليهم، وشاركهم في الأولاد، وعدّهم، على سبيل التهديد والتحدي لإبليس⁴⁷ في أنه مهما بالغ في الاستنزاز، وهو الترهيب والتخويف، واستعمال الأسلحة الأخرى فلن ينال مراده.

3- جاءت الآية التي تليها: "إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان" جواباً على توهم إبليس أنه بهذه الأدوات يستطيع أن يضل عباد الله، فجاءت الآية كالمقررة في ردّ حاسم، وبصيغة الجملة الاسمية؛ لتجعل ذلك حقيقة مقررة ثابتة.

4- جاء الفعل "استنفر" ليفيد المبالغة رداً على توعد إبليس المؤكد في قوله: "لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً" (الاسراء، 62)، فالآية كما يظهر أكّدت بأقوى أنواع التوكيد وهو القسم، وكذلك الفعل "أحتنكن" يصور حاله التمكن منهم والاستحواذ عليهم والقدرة على توجيههم وتصريفهم كحال صاحب الدابة الذي يوجهها كما يريد، فكان الأنسب أن يكون الجواب مؤكداً.

الموضع الثاني:

"وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُوا مِنْكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا" (الاسراء، 76): ذكر صاحب اللسان أن "استنفر" تأتي بمعنى أخرج، وبمعنى قتل، وفي الحقيقة إن هذه نتائج لفعل الاستنزاز، وليست معاني له، وكأنّ هذا المعنى تطور من المعنى الأصلي لما كان ملازماً له، وهو

نتيجة من نتاجه، وما أدقّ ما قاله صاحب اللسان: " وقال أهل اللغة، كادوا يستفزونك إفزاعاً يحملك على خفة الهرب"⁴⁸، وبناءً على ما في هذه الصيغة من المبالغة يظهر أنّ الفعل يمكن أن يحمل المعنيين الآتيين:

1- إنّ المبالغة في الفزّ التي تفيدها صيغة "استفزّ" التي بدورها تحمل المبالغة في الإزعاج والتهيج والإثارة والاضطراب في الحركة من الأرض التي هو فيها؛ مما يدفعه إلى أن يخرج منها، وهذه هي علة الاستفزاز التي أرادها المشركون، وتكون "من، هنا ابتدائية.

2- ويمكن أن تكون "من" هنا سببية، ويكون المعنى: إنّ المشركين يا محمد قد رصدوا لك مُزْعجاً ومُهَيِّجاً ومُتْرَصِّداً وقَاتلاً يكمن لك في كلّ بقعة من الأرض ليكون سبباً في خروجك منها.

وقد ألمحت الآية إلى شدة الإيذاء الذي تعرض له النبي - صلى الله عليه وسلم- بأنّ المخفة المؤكدة ، ثمّ بفعل المقاربة "كادوا" الدال على القرب من تحقيق العرض، وبالفعل المضارع "يستفزونك" المقترن بلام القسم والدال على الاستمرار، مما يدل على ضخامة الكيد، واتساع حملة التشويه، واستمرار بثّ الدعاية الكاذبة، والدأب على هذا النهج الذي يضغط على الأعصاب، ويوهن النفوس، ويفت في العزائم.

الموضع الثالث:

"فأراد أن يستفزّهم من الأرض"، (الإسراء، 103):

صيغة استفعل تصور المبالغة في التخويف والترهيب التي مارسها فرعون بحقّ بني إسرائيل، وذلك من طريق استحياء النساء وتذبيح الأبناء، والملاحقة والتعذيب والأسر والقتل حتى يصبحوا في الأرض وما هم منها، والتعبير بـ "من الأرض" يشير إلى الملاحقة والأخذ من كل أنحاء الأرض، وأنّ التعذيب والأخذ أحاط بهم من كل مكان، وقد عبّر القرآن عن هذا الفعل بأبلغ تعبير، فقال: "يسومونكم سوء العذاب"، (البقرة، 49)، وقد ذكر كثير من المفسرين أن الاستفزاز هنا يشتمل على معنى الإخراج، فقال الزمخشري: "فأراد فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها أو ينفهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال"⁴⁹.

وقال الرازي: "فأراد أن يستفزّهم يعني: أراد فرعون أن يخرجهم يعني موسى وقومه بني إسرائيل"⁵⁰، وقال القرطبي: "واستفزّاه إياهم هو استخفافه لموسى ولقومه بأنّ يقلعهم من أرض مصر بقتل أو جلاء"⁵¹.

والذي يظهر أنّ الاستفزاز لا يشتمل على الإخراج للأسباب الآتية:

1- في الآية السابقة جعل الإخراج نتيجة للاستفزاز فقال: "وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها"، ولم يذكره في هذه الآية.

2- كان المطلب الأساس لموسى -عليه السلام- هو الخروج ببني إسرائيل من مصر؛ "فأتياه فقولاً إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل" (طه، 47)، فكيف يكون الإخراج ذاته مطلباً لموسى وفرعون.

3- لو كان فرعون يريد إخراجهم لتركهم وشأنهم عندما خرجوا هاربين من مصر، ولكنه لحقهم بجيشه ليردّهم إلى مصر.

4- يبدو أنّ فرعون كان محتاجاً لهم ليقوموا بأعمال ما كان ليقوم به المصريون من حيث الخدمة والقيام بالأعمال الوضيعة، كالزراعة والحراثة وغيرهما، ولذا كان ردّ موسى على

فرعون عندما ذكر نعمته عليه أن قال: "وتلك نعمة تمنُّها عليّ أن عبدت بني إسرائيل" (الشعراء، 22).

صيغة استكبر:

جعل بعض النحاة "استكبر" بمعنى "تفعل"، جاء في البحر المحيط، "الاستكبار والتكبر: وهما ممّا جاء فيه استفعل بمعنى تفعل" ⁵².

وردت صيغة "استكبر" في القرآن الكريم ماضياً ومضارعاً في 41 موضعاً، وهذه الصيغة لا يمكن أن تكون بمعنى الطلب؛ لأنه ليس ثم طلب، وليست الصيغة بمعنى أنهم طلبوا الكبر، قال أبو حيان، "استكبروا طلبوا الهيبة لأنفسهم، وهو من الكبر، فيكون استفعل للطلب، وهو بابها، أو تكون استفعل بمعنى فعل؛ أي كبروا لكثرة المال من الجاه" ⁵³، وعند تطبيق هذا المعنى على الآيات التي فيها "استكبر" لا يستقيم المعنى، فهل يمكن فهم معنى الطلب من "استكبر" في قوله تعالى: "أفلم تكن آياتي تُنزلني عليكم فاستكبرتم" (الجاثية، 31)، وقوله تعالى: "إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين" (البقرة، 34)، وكذلك لا يمكن أن تكون استكبر بمعنى كبر؛ لأنّ الزيادة في المبنى لا بدّ أن تقابلها زيادة في المعنى، ولا تأتي أيضاً بمعنى تكبر لأنّ الصيغتين مختلفتان، فكيف يكون معناه واحداً.

والذي يظهر من خلال استقراء المواطن التي ورد فيها الفعل "استكبر" أنّ هذه الصيغة تعبير عن حالة نفسية داخلية يصاحبها شعور بالعظمة والأنفة والإباء إزاء غيره من الخلق، أو إزاء ما يطلب منه من أوامر لإحساسه أنّ هذه الأوامر لا يجوز أن تُوجّه إلى من هم في مكانته.

الفعل استكثر:

ورد الفعل "استكثر" في القرآن في ثلاثة مواضع، وعند النظر في معاجم اللغة يظهر أنّهم جعلوه بمعنى الطلب، جاء في لسان العرب: "واستكثر من الشيء: رغب في الكثير منه، وأكثر منه أيضاً" ⁵⁴، وجاء في تاج العروس "وكاثره الماء، واستكثره إياه؛ إذا أراد لنفسه منه كثيراً ليشرب منه وإن كان الماء قليلاً، واستكثر من الشيء: رغب في الكثير منه، وأكثر منه أيضاً" ⁵⁵. لم يختلف رأي المفسرين كثيراً عمّا ورد في معاجم اللغة، جاء في الكشف، "قد استكثرتم من الإنس: أضللتهم منهم كثيراً، أو جعلتموهم أتباعكم فحشروهم معكم منهم الجَمّ الكثير كما نقول: استكثر الأمير من الجنود، واستكثر فلان من الأتباع" ⁵⁶.

ولا يخفى أنّ الزمخشري يقصد أنّها هنا بمعنى "أكثر"؛ لأنّ "أكثر" يتعدّى بالهمزة، أو بمعنى الجعل، قال الرضي، "الغالب في أفعال تعديّة ما كان ثلاثياً، وهي أن يجعل ما كان فاعلاً للآزم مفعولاً لمعنى الجعل لأصل الحدث ما كان؛ فمعنى: أذهبت زيدا، جعلت زيدا ذاهباً" ⁵⁷. والذي يراه الباحث أنّ استكثر ليست بمعنى "أكثر" لأنّ الأصل في اختلاف الصيغ اختلاف المعاني؛ ولأنّ كلتا الصيغتين وردت في القرآن الكريم، ولا يمكن أن تتعاقب الصيغ في القرآن الكريم؛ لأنّ هذا يتنافى مع طبيعة اللغة العربية، وإعجاز القرآن.

أمّا المواضع التي ورد فيها الفعل "استكثر" فهي:

1- "ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا

استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا". (الأنعام، 128)

عند التدقيق في السياق الذي ورد فيه "استكثر" نجد أنّه قد تعدّى بحرف الجرّ "من" ولم يتعد بنفسه، ولو تعدّى بنفسه لكان بمعنى عدّ الشيء كثيراً، أو رآه كثيراً، كقولك: استكثر المال، أي رأيت كثيراً، واستكثر العدو، عدته أو رأيت كثيراً، والذي يظهر هنا أنّ صيغة "استكثر" تفيد المبالغة والتكثير، إذ هي زيادة، وتكثير للكثير، وسياق الآية يرجح

هذا المعنى: قال سبحانه: "ويوم يحشرهم جميعاً"، فكلمة "جميعاً" تشمل جميع الإنس والجنّ، وهذا يكون في موقف الحشر يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يحشر كل فرد من الثقلين، ولا يمكن تصور هذا العدد الهائل الذي لا يمكن حصره، وهذا يرجح كون "استكثر" بمعنى المبالغة والتكثير.

2- ورد في الآية الفعل "استكثر" دون غيره، وأصل هذا الفعل يفيد الكثرة، فلم يقل مثلاً استزلتم، أو استهويتم، أو استجلبتم، أو استقدمتم.

3- هناك تطابق بديع، وتناسب لطيف في معنى المبالغة بين الصيغتين استكثر، واستمتع في الآية، فالأولى سؤال والثانية جواب. والفعل "استمتع" يشير إلى النهاية في الاستمتاع المقابل للنهاية في العدد والكثرة، وهو لا يرد إلا في حالات خاصة يتجلى فيها هذا المعنى كتصوير الانتفاع في العلاقة الزوجية: "فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهنّ" (النساء، 24)، وحالة الأمم التي حَقَّ عليها العذاب الشديد كونها بالغت في الاستمتاع بنعم الله وتخلت عن عبادته وعن شكره؛ قال تعالى: "فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذي من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا"، (التوبة، 69). وقال تعالى: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم"، (الأحقاف، 20).

ويمكن أن يكون الاستماع دليلاً على كثرة في الفاعلين كما هو كثرة في الفعل، فتكون كثرة المتمتعين مقابلة لكثرة المحشورين يوم القيامة، وذلك أن الاستمتاع كان من طرفي الجنّ والانس وهذا الاستمتاع استمر إلى يوم القيامة: "وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، وهذا زمن طويل يفسر هذه الكثرة المفرطة.

4- جاء في تفسير التحرير والتنوير: "والاستكثر شدة الإكثار، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل الاستسلام، والاستخداغ، والاستكبار ويتعدى بمن البيانية إلى الشيء المتخذ كثيره، يقال: استكثر من النعم، ومن المال؛ أي من جمعها، واستكثر الأمير من الجند، ولا يتعدى بنفسه تفرقة بين هذا المعنى وبين استكثر الذي بمعنى عدّ الشيء كثيراً كقوله: ولا تمنن تستكثر" 58.

الموضع الثاني:

"سَأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"، (الأعراف، 188):

هذه الآية تتحدث عن الساعة، وتجعل علمها خاصاً به سبحانه؛ فلا يعلم توقيتها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ثم بينت الآية أنّ الغيب بصورة عامة لا يعلمه الرسول، ولو علمه لتجنب ما فيه من مضار، وحقق ما فيه من مكاسب. وورود الفعل استكثر في هذه الآية مناسباً للسياق من خلال النقاط الآتية:

1- يعدّ القصر من أبرز أساليب التوكيد، وقد ورد في هاتين الآيتين بكثرة تستدعي الانتباه، فقد وردت مرات هكذا: "قل إنّما علمها عند ربي، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً، قل إنّما علمها عند الله، قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، إنّ أنا إلا نذير وبشير".

2- وردت صيغة الاستكثار من الخير في حالة علم الغيب مقابلاً لعدم القدرة على تحقيق شيء من النفع والضرر في حالة عدم علم الغيب، وهما صورتان متناظرتان توضحان جهل الإنسان التام بالغيب:

قال تعالى: "قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً"، و"نفعاً" و"ضراً" جاءتا نكرتين لتقيداً للنفي العام، فهو لا يملك شيئاً من الضر والنفع بسبب حجب الغيب عنه، ثم قابلها بقوله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وهي الحالة الثانية، وهي غير حاصلة، لكن عند تقدير حصولها سيقوم بتحصيل الخير من كل جوهه كمّاً وكيفاً.

3- تعبّر الآية عن حالة فطرية في الإنسان، وهو أنّه إذا علم الغيب، و ما يترتب على هذا العلم من معرفة الخير؛ فإنه لن يتوانى في تحصيل ما يستطيع تحصيله منه، وهذا تصديق لقوله تعالى: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ" (العاديات:8).

الفعل استنفر:

وردت صيغة "استنفر" عند علماء اللغة بمعنى نفر، وأنفر، فقد جاء في تاج العروس "واستنفرته، وأنفرته، وكذا نفر عنه وأنفر عنه، ونفرت واستنفرت كلٌّ بمعنى، والمستنفر النافر، وقرئت مستنفرة بكسر الفاء بمعنى نافة"⁵⁹. وكذلك عند كثير من المفسرين هي بمعنى نفر وأنفر، جاء في تفسير القرطبي: "نفرت واستنفرت بمعنى عجت واستعجبت وسخرت واستسخرت"⁶⁰. وقد ألمح الزمخشري في كشافه أنّها تفيد المبالغة، فقال: "والمستنفرة: الشديدة النّفار من نفوسها في جمعها له وحملها عليه"⁶¹.

ويرى الباحث أنّها تفيد المبالغة كما أشار الزمخشري، وهي المبالغة في النفور، وقد وردت في القرآن الكريم في موطن واحد في صورة المشتق في قوله تعالى: "فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ، كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ" (المدثر:49-51)، فصيغة "استنفر" زيدت فيها السين والناء من أجل المبالغة في النّفار، والدليل على ذلك:

1- جاءت الآية في سياق الاستفهام التعجبي "فما لهم عن التذكرة معرضين"، والتعجب هنا من شدة الإعراض والفرار من وجه الداعي.

2- الآية تصور حالة فرار الحُمُر الوحشية من وجه الأسد حفاظاً على الحياة والبقاء، ولكن الصورة، استكملت روعتها بقوله "قسورة" دون أسد، أو ليث، أو أسامة؛ فهذه الكلمة تحمل في جرسها شدة وعنفاً، وفي ظلالها معنى القسر والغلبة والجبر، "وهي فعولة، من القسر وهو القهر والغلبة، سمي بذلك لأنه يقهر السباع"⁶².

3- كلمة "فرّت" في قلة حروفها، ودقة معناها تصور الشدة والسرعة في الهروب؛ إذ الفرار في أصله يكون للطير لسرعة حركته، وإذا استعمل في غيره يكون للمبالغة في الحركة، فعندما تحدث القرآن عن وجوب الالتجاء إلى الله والاحتماء به قال: "فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ" (الذاريات، 50).

4- استعمال الحرف "كأنّ" فيه مبالغة وزيادة في التشبيه، إذ إنّ الحرف كأنّ "أشدّ مبالغة من الكاف وحده أو من الكاف إذا فصلت عن "أنّ"، فهي أبلغ من قولنا: هم كحمر مستنفرة، أو: إنهم كحمر مستنفرة، إذ التشبيه بكأنّ يجعل المشبه عين المشبه به.

5- جاء في تفسير التحرير والتنوير: "والسين والتاء في مستنفرة للمبالغة في الوصف مثل: استكمل واستجاب واستعجب واستسخر واستخرج، واستنبط، أي: هي نافرة نفاراً قوياً، فهي تعدو بأقصى سرعة العدو"63.

6- كلمة "حُمُر" توحى بمعنى السرعة، في قلة حروفها، وتوالي ضماتها الثلاث مما يعطي الكلمة انسيابية على اللسان يستغرق النطق بها أقل فترة زمنية ممكنة، وهي أبلغ من قولنا: حمير، أو أحمر، إذ فيهما من الطول ما ليس في "حُمُر"، وقد وردت كلمة "حمير" في القرآن عندما كان السياق يستدعي التأمل والنظر وإمتاع النفس بجمال الخلق، وحسن الإبداع في هذه الحيوانات الأليفة وهي تقوم بمهمتها، قال تعالى: "وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَعُوفٌ رَّحِيمٌ، وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (النحل6-8).

7- وردت كلمة "مستنفرة" بصيغة اسم الفاعل عند جمهور القراء64، وهي تدلُّ على أن النَّفَار شيء داخلي في نفوس هذه الحُمُر وقلوبها، وهو الرعب الذي ملأ قلوبها، فكأنَّ الاستنفار هو سبب داخلي نبت في نفوسها وتولّد في ذواتها ممّا دفعها في هذه السرعة الشديدة. وأما القراءة على وزن اسم المفعول "مُستنفرة"، فتشير إلى سبب خارجي حدا بها إلى الاستنفار. والقراءتان متكاملتان، فسبب الاستنفار خارجي استقرّ في نفوسها، وملأ قلوبها رعباً، فكأنه أصبح هو الباعث على النَّفَار والهرب.

صيغة الفعل استنقذ:

جاء في اللسان: "قال الجوهرى: أنقذه من فلان، واستنقذه منه، وتنفّذه بمعنى، أي نجاه وحلّصه"65. يظهر ممّا سبق أن لا تفريق بين الفعل "استنقذ" وغيره من الصيغ المشتقة من الجذر نفسه، فهي عندهم بمعنى: أنقذ، ونقّذ، وربّما الذي ألجأ إلى هذا التفسير هو استعمال هذه الأفعال في عبارات متشابهة، وعدم التدقيق في تبيين الفرق في الاستعمال.

ورد الفعل استنقذ في القرآن في موطن واحد في سورة الحج في قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ" (الحج،73):

عند النظر في سياق الآية يظهر أنها ترمي إلى إبراز ضعف الآلهة التي كان يتوجّه إليها المشركون، ومن ثمّ إبطال كونها تستحقّ القصد والعبادة والتوجه.

1- في قوله: "إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا"، أكدت هذه الحقيقة بـ "إِنَّ"، ثم بـ "لَنْ" التي تشرع الباب مفتوحاً للتحدي، ثم قال: ذباباً نكرة لتهوين شأنها وتحقير أمرها.

2- في قوله: "وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ" توكيد لضعفهم، فهم لن يوجدوا هذا المخلوق الحقير، ولو تكاثفت عقولهم، واجتمعت علومهم، وفي ذلك مزيد تحقير.

3- في قوله: "وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا"، أي ولو كان شيئاً قليلاً لا يكاد يذكر.

4- في قوله: "لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ"، أي لا يستطيعون استرجاع ما سلبهم الذباب إياه، ولو بذلوا كلّ ما يملكون من علوم، وقوى، ومحاولات، فيوضح أنّ صيغة "استنقذ" أفادت المبالغة في الفعل.

الخاتمة:

أهم نتائج البحث :

1. لصيغة استفعل معان مختلفة غير ما ذكره النحاة واللغويون في كتبهم ويكون لها ملاحظ نفسية، ودلالات عميقة تتناسب والسِّيَاق الذي وردت فيه، والغرض الشرعي الذي ترمي إليه.
2. أهم الأغراض التي تحقّقها استفعل هو توكيد المعنى والمبالغة فيه.
3. قد تتوارد عدّة معان على هذه الصيغة كالفعل "استضعف" مثلاً، فهو يتحقق معناه من طريق ثلاثة معان متتالية، وهي: الاعتقاد، ثمّ الوجدان، ثمّ ممارسة لوازم الفعل، وهي التسلط والقهر ومحاولة القتل.
4. قد تكون صيغة استفعل تصويراً لحالة شعورية تعبر عمّا يجيش في النفس، وذلك كالفعل "استكبر".

الهوامش

1. شرح شافيه ابن الحاجب، رضي الدين الاسترلابادي، ج2، ص331.
2. المصدر السابق، ج1، ص85.
3. المبدع في التصريف، أبو حيان النحوي، ص119.
4. شرح شافيه ابن الحاجب؛ ج1، ص110، شرح التسهيل، ناظر الجيش، ج8، ص3763، ارتشاف الضرب، أبو حيان الأندلسي، ج1، ص179¹.
5. أدب الكاتب، ابن قتيبة، ص469، شرح المفصل، ابن يعيس، ج4، ص422.
6. الكتاب، سيبويه، ج4، ص70، همع الهوامع السيوطي، ج3، ص306.
7. شرح شافيه ابن الحاجب، ج1، ص111.
8. همع الهوامع، ج3، ص307، شرح التسهيل، ج8، ص3764.
9. شرح التسهيل، ج8، ص3764.
10. الكتاب، ج4، ص71.
11. أدب الكاتب، ص468.
12. شرح التسهيل، ج8، ص3765.
13. شرح التسهيل، ج8، ص3765، ارتشاف الضرب، ج1، ص180.
14. المخصص، ج1، ص217.
15. اللسان، مادة جوب.
16. تفسير الواحدي، ج1، ص283.
17. تفسير البحر المحيط، ج2، ص171.
18. تفسير الراغب الاصفهاني، ج1، ص186.
19. المحرر الوجيز، ج1، ص56.
20. نظم الدرر، ج3، ص75.
21. التحرير والتنوير ج25، ص131.
22. مجلة الجامعة الاسلامية، غزة، المجلد العشرون، العدد الثاني، حنان عمارة، ص18.
23. الكتاب سيبويه، ج4، ص70.
24. أدب الكاتب، ابن قتيبة، ص468.
25. شرح التسهيل، ناظر الجيش، ج8، ص3764.
26. تاج العروس، مادة "خفف".

27. القرطبي. ج16، ص101
28. مفاتيح الغيب، الرازي، ج27، ص638
29. اللسان، مادة "خفف"
30. الكشاف/ ج2/ ص625
31. تفسير البيضاوي، ج3، ص236
32. التحرير والتنوير، ج14، ص236
33. تاج العروس، مادة خفف
34. الكشاف، ج1، ص429
35. مفاتيح الغيب، ج9، ص388
36. البحر المحيط، ج3، ص381، وينظر إرشاد العقل السليم، ج2، ص103
37. البحر المحيط، ج5، ص165
38. التحرير والتنوير، ج9، ص88.
39. اللسان، مادة خفف.
40. الكشاف، ج1، ص472.
41. الكشاف، ج3، ص237.
42. تفسير البيضاوي، ج4، ص106.
43. البحر المحيط، ج8، ص27.
44. التحرير والتنوير، ج18، ص218.
45. التحرير والتنوير، ج18، ص297.
46. اللسان، مادة فزز.
47. مفاتيح الغيب، ج21، ص367.
48. اللسان، مادة فزز.
49. الكشاف، ج2، ص698
50. مفاتيح الغيب، ج21، ص413
51. تفسير القرطبي، ج10، ص338
52. البحر المحيط، ج4، ص245.
53. البحر المحيط، ج4، ص329.
54. اللسان، مادة كثر.
55. تاج العروس، مادة كثر.
56. الكشاف، ج1، ص64.
57. شرح الشافية، ج1، ص86.
58. التحرير والتنوير، ج8، ص65.
59. تاج العروس، مادة نفر.
60. تفسير القرطبي، ج19، ص88.
61. الكشاف، ج4، ص656.
62. الكشاف، ج20، ص716.
63. التحرير والتنوير، ج29، ص329.
64. تفسير القرطبي، ج19، ص89.
65. اللسان، مادة نقذ.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- 1- الأسترابادي، رضي الدين محمد بن الحسن، شرح شافية ابن الحاجب، 3ج، (د،ت)، تحقيق محمد محيي الدين وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
 - 2- البقاعي، إبراهيم بن عمر بن حسن، 22ج، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
 - 3- البيضاوي، ناصر الدين، أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (1418هـ)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - 4- أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، الغرناطي، الأندلسي:
أ. ارتشاف الضرب من لسان العرب (1418هـ)، 5ج، تحقيق رجب عثمان محمد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.
ب. البحر المحيط، (1420هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، (د.ط)، دار الفكر، بيروت.
ج. المبدع في التصريف، (1982م)، تحقيق عبد الحميد السيد طلب، مكتبة دار العروبة الكويت.
 - 5- الرازي، فخر الدين، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي، مفاتيح الغيب، (1420هـ)، ط3، ديار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - 6- الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (1420هـ)، تفسير الراغب الأصفهاني، 3ج، تحقيق: عادل بن علي الشدي، ط1، دار الوطن، الرياض.
 - 7- الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (د.ت)، دار الهداية.
 - 8- الزمخشري، جادالله، أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، (1407هـ)، 4ج، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت.
 - 9- أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (د،ت)، (د،ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - 10- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، (1402هـ)، 4ج، تحقيق عبد السلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.
 - 11- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، (1417هـ)، المخصص، 5ج، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
 - 12- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، همع الهوامع، (2002م)، 3ج، تحقيق عبد الحميد هنداوي، (د.ط)، المكتبة التوقيفية، القاهرة.
 - 13- شلاش، هاشم طه، أوزان الفعل ومعانيها، (1971م)، ط1 مطبعة الآداب، النجف الأشرف.

- 14- ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (1984م)، ج30، دار التونسية للنشر، تونس.
- 15- عضيمة، محمد عبد الخالق،
أ. المغني في تصريف الأفعال، (1426 هـ)، (د، ط)، دار الحديث القاهرة.
ب. دراسات لأسلوب القرآن الكريم، (2004م)، (د، ط)، دار الحديث، القاهرة.
- 16- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب، (1422 هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت .
- 17- القرطبي، شمس الدين، تفسير القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، (1384 هـ)، ج20، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- 18- ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، أدب الكاتب، (1402 هـ)، تحقيق محمد الدالي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- 19- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب، (1414 هـ)، ج15، ط3، دار صادر، بيروت.
- 20- ناظر الجيش، محبّ الدين محمد بن يوسف بن أحمد، شرح التسهيل، (1428 هـ)، ج11، تحقيق علي محمد فاخر وآخرين، ط1، دار السلام، القاهرة.
- 21- الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (1415 هـ)، ج1، تحقيق: صفوان عدنان داودي، ط1، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت.

المقالات:

عمايرة، حنان، إسماعيل: (2012) معاني الزيادة في الفعل الثلاثي في اللغة العربية، دراسة وصفية، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، الجامعة الإسلامية، غزة، المجلد العشرون، العدد الثاني، ص 18.
